۞بلاغة الإنجاز اللغوي عند العرب قبل نشأة الدرس البلاغي

الدكتور/عبد القادر هني
عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر

إن بلاغة الإنجاز القولي عند عرب ما قبل الإسلام ليست شيئاً يمكن أن يفترضه الدارس افتراضاً ويزعمه زعماً، إنما كانت حقيقة بيّنة شهد عليها إنتاجهم الشعري والأدبي وعبّر عنها القرآن الكريم تعبيراً بيّنا لا لبس فيه في أكثر من موضع. وهذا الالتفات إلى ما كان يتوفر عليه عرب الجاهلية من قوة العارضة في القول ومن تحكم في أساليب الأداء في لغتهم وتصريف فنون التعبير فيها تصريفا حسب أغراض القول ومقاماته، أقول إن هذا الالتفات كانت غايته توكيد معجزة الرسولﷺ، وهي معجزة بيانية غايتها إقرار قدسية النص الذي أنزل عليه من قبل عزيز حكيم، وقد عاد القرآن الكريم إلى التذكير بما أوتيه العرب من قدرة على الإبانة ومن قوة في الحجاج والجدل غير ما مرة كما في قوله تعالى:﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾[1] وفي قوله ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾،[2] وقوله في سورة الزخرف﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾[3] هذه الآيات وغيرها مما له صلة بإثبات منزلة عرب الجاهلية من البيان، يشف عما كانوا يتمتعون به من كفاءة عالية في صناعة الكلام وحوكه الحوك المناسب لمقاصدهم القولية وأهدافهم التبليغية، لذلك جاءت الإشارة واضحة في الآيات التي سقناها إلى الأثر المتوقع من كلامهم، وهو أثر تحققه وثيق الصلة بقدرهم على التصرف في الكلام وبإحساسهم بالقيمة التعبيرية للألفاظ

وللمعاني في السياقات الكلامية التي يُنَزِّلُونها فيها وفي المقامات التي توظف فيها. وهذه الكفاءة البيانية التي كان يتمتع بها العرب وتجسدت في إنتاجها اللغوي هو ما حدا بهم إلى التقريب بين الشعر والقرآن في طرائق التصوير وفي أساليب التعبير والأداء، بل لقد بلغ بهم الأمر حدَّ المطابقة بينهما، يفسر ذلك نسبتهم الرسولﷺ إلى الشعر كما ورد في عدد من آي الذكر الحكيم كما في قوله تعالى: ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾.[4] وكما في قوله عزّ وجل يصحّح هذا الوهم الذي توهموه ويقرّر قدسية النص القرآني ويدفع عن الرسولﷺ ما رموه به من تهم افتراءِ وادعاءِ النبوة كما جاء في قوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين﴾ [5] وفي قوله " ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون تنزيل من ربّ العالمين﴾[6].

إن إدراكهم جماليات التعبير القرآني وما فيه من توظيف مخصوص للغة يرقى به عن الكلام التواصلي الذي يستخدمه الناس في حياتهم اليومية والذي تهيمن فيه الوظيفة التبليغية على ما عداها من الوظائف، إن هذا الإدراك لا يمكن أن يحصل في غياب مرجعية أو مرجعيات جمالية في توظيف اللغة تسمح بإجراء مقارنات بين ما هو مختزن في الذاكرة اللغوية بوصفها منظومة من الاستخدامات والأساليب يتمثلها الفرد خلال حياته بين الجماعة اللغوية التي يعيش بينها،وبوصفها أيضا مجموعة من الكفاءات الموجود لديه بالقوة لفهم وإنتاج جمل ونصوص لم يسبق له أن أنتجها أو سمع بها[7]. وامتلاك العرب هذه الكفاءة لإنتاج أنماط خاصة من الأساليب والحكم على المقبول وغير المقبول منها، يعدّ المعيار أو المرجع الذي أسَّسُوا عليه حكمهم على ما سمعوه من

رسول الله فبدا لهم قريبا مما بين أيديهم من كلام مع فوارق أملت عليهم نسبته- بالإضافة إلى الشاعرية-إلى الجنون، للتعبير عما يتضمنه من استخدامات غريبة غير معهودة لديهم ولا يستطيعونها وإن نسجت بلغتهم وجاءت وفقا لقواعدها، لذلك لا نستغرب أن يقول الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسولﷺ وقد استمع إليه وهو يتلو شيئا من القرآن "والله لقد سمعت من محمد كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق"[8] ونجد في القرآن الكريم من ناحية أخرى طائفة من الآيات يتحدى فيها المولى تعالى العرب أن يستطيعوا صياغة كلام كالذي جاء به محمدﷺ من عند الله كما في قولهﷻ ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾[9]. وكقوله في سورة الإسراء:﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا﴾[10]. وفي تأكيده جلت قدرته فرادة القرآن في استخدام اللغة وبلوغه درجة الإعجاز في ذلك يتحدى العرب أن يقدروا على إنتاج سورة واحدة يبلغون فيها منزلته في النسج وصياغة الكلام، بل يدعوهم- إمعانا في التحدي- أن يستعينوا من أجل درك تلك الغاية في الإبانة بمن شاءوا من البشر، توكيدًا منه تعالى أن البيان القرآني قد بلغ الذروة التي تقع دونها النسوج اللغوية التي تنتجها الكفاءات البشرية مهما أوتيت من حذق ومن قوة العارضة في

البيان، قال تعالى:﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾[11].وقال في سورة يونس:﴿ قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ [12].

إن مثل هذه الآيات التي تحدى فيها المولى تعالى العرب أن يستطيعوا مضاهاة القرآن في نسجه وفي طرائقه في التعبير تعد في حقيقة الأمر شهادة من القرآن نفسه على المنزلة التي بلغوها في صناعة الكلام وفي تصريف أساليبه وتشقيقها كما ذكرنا، فلولا قوة البيان التي امتلكوا حتى أضحت ميزة يعرفون بها، لما كان لاختيار القرآن تحديهم من هذه الناحية معنى ولبطل الإعجاز البياني القرآني أن يكون معجزة وحجة على النبوة. وإقرار آيات التحدي ضنا بما تهيأ لعرب ما قبل الإسلام من كفاية عالية في تأليف الكلام وصوغه صياغات عجيبة تقيد النفوس وتستحوذ عليها، هذا الإقرار يترجمه أيضا قوله ﷺ وقد استمع إلى بعض خطبائهم-كما روي- إن من البيان لسحرا.[13]

وقد أدرك القدماء منذ وقت مبكر نسبيا القرابة الكائنة بين طرق التعبير ومسالك القول في القرآن وفي كلام العرب، فأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفي في بداية القرن الثالث للهجرة يقول في ذلك:" ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ومن المحتمل من مجاز ما اختصر ومجاز ما حذف ومجاز ما كف عن خبره ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الإثنين... ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب..."[14]. إن إكثار أبي عبيدة في تتبعه هذا التقارب في طرق التعبير من الاستشهاد- بالنسبة إلى كلام العرب-بالشعر خاصة يدل في تقديرنا على أن الظواهر التعبيرية المخصوصة التي رام تحديدها تتوفر في الشعر أكثر مما تتوفر في غيره

من أنماط الكلام عند العرب، فعلى سبيل المثال حين سأله بعض الكتاب في مجلس الفضل بن الربيع عن الإغـــراب الموجود في قوله تعالى﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾[15]. كان جوابه بأن المولى ﷻ كلمهم على قدر كلامهم ومثل لذلك بقول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ففي الآية كما في بيت امرئ القيس" حمل معلوم على مجهول، انطلـــق بموجبـــه التشبيه في غير منطلقه الأصلي"[16]

إن مثل هذا التقريب بين القرآن وبين الشعر لا يقصد بطبيعة الحال إلى المطابقة بين الخطابين في طرائق التعبير ليجعل منهما شيئا واحدا من جهة استخدام اللغة إنمـــا كان القصد منه"ربط حبل الأسباب بين النص القرآني وسبل العرب في التعبير"[17].

أما بعد ذلك فإن العلماء الذين انتدبوا أنفسهم لبحث الجوانب التعبيرية في القرآن وفي أرقى النصوص التي انتجها العرب وفي مقدمتها الشعر كانوا يهدفون إلى الكشف عـــن أصالة التعبير القرآني وتفرده وتفوقه على ما عرفه العرب قبل الإسلام، وقد كـــانت هذه الغاية واضحة منذ الخطوات الأولى للدرس البلاغي. ثم إن العرب أنفسهم أدركوا بحسهم اللغوي الدقيق البون الشاسع الكائن بين القرآن وبين أنماط الكـــلام المألوفـــة عندهم وهو ما سيقرره علماء البلاغة والمشتغلون بقضية الإعجاز الذين قدم بعضـــهم ردودا مقنعة على ما ذهب إليه بعض المعتزلة من مضاهاة أساليب العرب ومســـالكهم في القـــول وطرائقهم في التعبير قبل التحدي لما تضمنه القرآن[18]. سوى أن عجز العرب وقصورهـــم عن بلوغ غايتهم في مجاراة القرآن في صناعة الكلام لا يطعن في كفايتهم بل يؤكدها، إذ لـــو لم يأتوا قدرة متميزة في صناعة الكلام لكان تحديهم من هذه الناحية عديم الدلالة.

تأسيسًا على هذه المنزلة التي بلغتها الممارسات الكلامية قبل الإسلام في سلم تصنيف الانتاجات اللغوية حسب كفاية مستخدم اللغة في تأليف الكلام وتنضيده وحسب قدرة هذا الكلام على تبليغ المقاصد وتحقيق مراد صاحبه من الخطاب الذي ينشئه، كالإفصاح عن حاجات المتكلم واستقبالها الاستقبال الذي يوقع المخاطب تحت حكم ما يخاطب به، أقول تأسيسًا على ذلك يمكن القول إن الخطابات التي خرج فيها العرب عن استخدام اللغة استخدامًا مألوفًا إلى استخدامات خاصة يظهر تميزها في طرائق تعليق عناصرها الأولى بعضها ببعض، إن هذه الخطابات تقع من حيث الترتيب بعد كلام الله ﷻ وبعد كلام نبيّه محمدﷺ على اعتبار أن إنتاجه القولي عليه السلام يتميز عن سواه من كلام الآدميين بما فيه الطبقة العليا منه كما قرَّر ذلك هو نفسهﷺ حين قال" أوتيت جوامع الكلم" وكما أكّد ذلك الجاحظ في بيانه بقوله: " لم يتكلم إلاَّ بكلام قد حفَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويسّر بالتوفيق وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام... لم تسقط له كلمة ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القصار... ولا يحتج إلاّ بالصدق ولا يطلب الفلج* إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة... ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظًا ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبًا ولا احسن موقعًا ولا أسهل مخرجًا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامهﷺ"[19] وقد أحس العرب أنفسهم بما في كلام الرسولﷺ من مزايا لا تتوافر في كلامهم وبتفوق بيانه على بيانهم فراحوا يحاولون تتبع خطاه في صياغاته فاستعاروا بعض عباراته وتداولوا منها ما شعروا أنه لم

يسبق إليها، من ذلك ما أثبته الجاحظ في كتابه الحيوان تحت عنوان: " كلمات للنبيﷺ لم يتقدمه فيهن أحد"[20].

وهذه الكلمات (أو العبارات) حسب ما أورده الجاحظ هي:" إذًا لا ينتطح فيها عنزان"، مات حتف انفه"" يا خيلَ الله اركبي"، كلّ الصيد في جوف الفرا" " لا يلسع المؤمن من جُحْرٍ مرتين". وورد أيضا عند غير الجاحظ من القدماء كلام عن جوامع كلمهﷺ التي يعجز البشر عن مجاراته فيها[21].

إن هذه الإنجازات اللغوية التي تحدثنا عنها تتميز كلها عن النسوج اللغوية التي كان يتواصل بها العرب ويستخدمونها في شؤون حياتهم العامة بما يتوافر فيها من خصائص تظهر في التركيب وفي الدلالة وفقا لمقاصد منتجيها التي تتجاوز مقاصد المتكلمين في الخطابات التواصلية التي تهدف إلى محض التبليغ، وهذا التفاضل من الجهة التي أشرنا إليها هو ما دعا الجاحظ- ربما- إلى التحدث عن طبقات الكلام عند الناس فقال:" وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا، فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فَلِمَ ذكروا العيي والبكيء والحصر والمفحم والخطل والمسهب والمتشدق والمتفيهق والمهماز والثرثار والمكثار والهماز؟ ولِمَ ذكروا الهجر والهذر والهذيان والتخليط وقالوا تلقاعة وفلان يتلهيع في خطبته؟ وقالوا فلان يخطئ في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره؟ ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء"[22]. وهذا التفاضل يؤكده نزوعهم إلى الاعتناء بتحسين كلامهم وإخراجه في صورة غير الصورة التي يخرج فيها كلامهم اليومي-كما كان يصنع الشعراء والخطباء[23].حسبما تقتضيه مقاصد

الكلام ومقاماته، فقد كانوا-كما ذكر الجاحظ-" إذا احتاجوا إلى الـــرأي في معظـــم التدابير ومهمات الأمور ميثوه (ذالوه) في صدورهم وقيدوه على أنفسهم، فإذا قوّمه الثقاف وأدخل للكير وقام على الخلاص أبرزوه محككا منقحا ومصفى من الأدناس مهذبا"[24]

إن القصد إلى السموّ عن النمط التواصلي الصرف للكلام، اســـتوجب علـــى المتكلمين وعلى مستخدمي اللغة جملة ركوب مسالك من القول وطرائق من التعبير والقيـــام بضروب من الاختيارات في اللغة والتوليف بين عناصرها ألوانا من التوليف حسبما تفرضها الظروف والملابسات الحافة بالخطاب وحسب مقاصد هؤلاء المتكلمين الذين تتفـــاوت إنتاجاتهم وتتفاضل بقدر نجاح اختياراتهم وإحكامهم تواليفهم وبقدر توافق ذلك كلـــه مع المقاصد والغايات، ومن هذا المنظور يمكننا أن نستخلص مما قيل عن أنماط الإنجـــاز اللغوي ومراتبه بحسب ما بينها من تفاوت في أحكام النسج وجمال العبارة ودرك الغاية تصنيفا لأضرب النسوج اللغوية نقدمه في الترسيمة التالية:

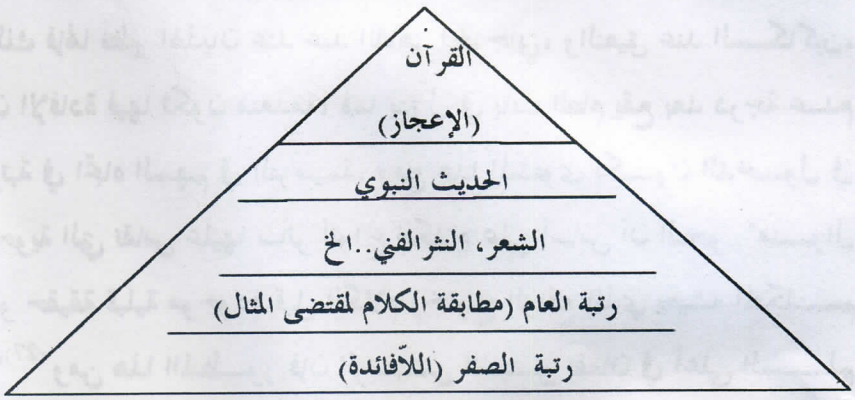

إن ما نتبينه من هذا التصنيف أن اللغة بوصفها نظامًا من العلامات وجملة مـــن القواعد والقوانين التي يخضع لها منتجو الخطابات حين يستخدمون تلك العلامـــات، أقول إن ما نتبيّنه هو اشتراك الأنماط الكلامية المحددة في الترسيمة السابقة في النظـــام

العلامي (أي في الأداة أو اللغة) واختلافها في كيفيات التعامل مع عناصر هذا النظام، فاللغة من حيث هي نظام من العلامات قاسم مشترك بين مستخدمي اللغة الواحدة، أما الفرق فيظهر في الاستعمال أي في إنجازات المتكلمين، ففي هذا المستوى يتبيّن التميز والفرادة في التأليف بين عناصر النظام، ويظهر الفرق أيضا بين اللغة من حيث هي وجود نظري وقدرة موجودة بالقوة لدى المتكلم، وبينها وهي كلام منجز بالفعل، معنى هذا أن البلاغة تتنزّل حتمًا في مستوى الكلام المنجز[25]. ومن هذه الجهة ترتب الأفعال اللغوية التي ينتجها مستخدمو اللغة ترتيبًا تصاعديا تفاضليا، أدناها الإنجازات التي تدخل في باب العام والتي يكون فيها الكلام مطابقا لمقتضى المثال، وهذه يقدر عليها كل من استطاع الامتثال لنحو اللغة وقوالبه الجاهزة، وهذه المرتبة في البلاغة العربية أرقى من درجة الصفر أو درجة عدم البلاغة كما يسميها الدكتور محمد الصغير بناني[26]، لأن الإنجازات اللغوية التي من هذا المستوى لا تتحقق معها مقاصد المتكلمين، لذلك فإنها نظير الهذيان عند عبد القاهر الجرجاني، والنعيق عند السكاكين، على اعتبار أن الإفادة فيها تكون منعدمة، فما يتنزّل في باب العام يقع بعد درجة عدم البلاغة في الرتبة في اتجاه السهم في الترسيمة، ومع هذا المستوى يكون الدخول في التراكيب النحوية التي تقاس عليها سائر أنواع الكلام على أساس أن النحو "منوال يحتذى به، فهو حقيقة قبلية موجودة قبل الكلام وخارج الواقع الذي يعيشه المتكلم والمخاطب"[27] ومن هذا المنظور فإن الرتبتين اللتين تقعان في أعلى السلم وهما رتبتا القرآن والحديث لا يتحدث فيهما عن التفاوت في النظم والتأليف، فالنصوص المصنفة في كليهما تكون من هذه الناحية في طبقة واحدة من حيث إفادة كمال المعنى. أما المترلة التي تليها فإنّ التفاوت بين الأنماط الكلامية التي تتنزّل فيها من حيث بلاغة

العبارة فقائم، ويكون أدناه ما ظهر فيه شيء من العدول عن مجرد إفادة أصل المعنى (حين يمتثل المتكلم امتثالا كاملا للقواعد القبلية) والميل بعض الميل نحو إفادة كمال المعنى. وفي المنزلة التي تأتي بعد هذه باتجاه الأسفل يتميز التأليف بالامتثال للمنوال الموجود قبل الكلام، فحصول الامتثال بينهما حصولا كاملا يؤدي إلى المطابقة بين جميع أنماطه.

أما المنزلة التي وسمت برتبة الصفر، فإن الفائدة تنتفي في نظومها، ومعها ينقطع التواصل بين المتكلم والمخاطب (الفعلي أو الافتراضي). وبذلك ترتب الإنجازات اللغوية التي قصدنا التحدث عنها بين تلك التي تتحقق معها غاية الإفادة وأقصاها وهي التي يمثلها القرآن الكريم وبين ما لا يشتمل على فائدة بتة، فهذا الصنف الأخير يقع خارج أجناس الكلام عند العرب وإن استعمل ألفاظ لغتهم.

الهوامش

1- الأحزاب الآية: 19.

2-المنافقون الآية: 4.

3-الزخرف الآية: 58

4- الصافات الآية : 36.

5- يس الآية : 69.

6- الحاقة الآيات 40،41،42،43.

7- اللغة والخطاب تأليف عمر أوكان ، ط.أفريقيا الشرق-بيروت- لبنان 2001 ص: 27 .

8-جاء هذا الكلام في تفسير الزمخشري. لسورة المسد. ونقلناه عن د. شوقي ضيف راجع البلاغة تطور وتاريخ ط.6 دار المعارف. دت. ص: 9.

9- سورة هود الايتان :13،14.

10- سورة الإسراء الآية 11.

11- سورة البقرة الآية :23.

12- سورة يونس الآية : 38.

13- دلائل الإعجاز تأليف عبد القادر الجرجاني. تح. محمود محمد شاكر. ط: 3 مط المدني بالقاهرة دار المدني بجدة 1992 ص:16.

14-مجاز القرآن تأليف أبي عبيدة معمر بن المثنى. تح د.محمد فؤاد سزكين. ط.بيروت.مؤسسة الرسالة1981. 18-19.

15- الصافات الآية: 63.

16-التفكير البلاغي عند العرب تأليف. د. حمادي صمود منشورات الجامعة التونسية. 1985 ص: 91 وراجع أيضا ص:90

17- التفكير البلاغي عند العرب. د. حمادي صمود ص:95.

18- راجع في ذلك نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تأليف فخر الدين الرازي. تح د. ابراهيم السامرائي.. وط. محمد بركات حمدي أبو علي دار الفكر للنشر والتوزيع – عمان- الأردن 1985 ص 33-34.

- الفلاح: الفوز والظفر.

19-البيان والتبيين للجاحظ في النثر العرب.ي د. شوقي ضيف ط: 7 دار المعارف. دت. ص 50-51 .

20-كتاب الحيوان لأبي عثمان الجاحظ.تح عبد السلام محمد هارون.دار إحياء التراث العربي.بيروت دت 315/1.

21-زهر لآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق العصري ط: 4. دار الجيل بيروت 1972 61/1.

22 – البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ144/1-145.

23-راجع ما ذكره الجاحظ بشأن شعراء الحوليات وعبيد الشعر في البيان والتبيين. 9/2.

24-البيان والتبيين للجاحظ 13/2-14.

25-راجع في ذلك التفكير البلاغي عند العرب. د. حمادي صمود ص96 ، 97.

26-البلاغة والعمران عند ابن خلدون. د. ابن خلدون د. محمد الصغير بناني ص: 143

27-نفسه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت

من لدن حكيم خبير﴾

"سورة البقرة، الآية 120"